

الاستعانة بالـ . . علاقة مستمرة بالخالق



قال تعالى: (إِـرِيـنَاكَ نَعْمَـيُدُّ وَاِـرِيـنَاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاحة / 5).

الهدف:

توضيح مفهوم الاستعانة بالـ وبيان موارد الاستعانة والفهم الخاطيء لهذا المفهوم.

من خلال الآية المتقدّمة نرى أنـ كما أمرنا بعبادته وحده لا شريك له، فقد أمرنا كذلك بالاستعانة به دون سواه، وأراد منّا الرجوع إليه في كافّة ما يعترض حياة الإنسان من حوادث وتحديات، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ العلاقة بالـ ليست علاقة طقسية تقتصر على بعض العبادات والفرائض، بل هي علاقة مستمرة وفاعلة، وعلى الإنسان أن يفعل لها ويقويها ويلجأ إليها في ساعات الشدّة والرخاء، بل لعلّ كمال العبادة في الاستعانة به دون سواه، وأنّ عدم الاستعانة بالـ نقص في العبادة، بل نقص في فهمنا للمعبود كذلك.

محاور الموضوع:

يمكن أن تتحقّق الاستعانة بالـ أو بغير الـ بصورتين:

1- أن نستعين بعامل - سواء أكان طبيعيّاً أم غير طبيعي - مع الاعتقاد بأنّ عمله مستند إلى الـ، بمعنى أنّّه قادر على أن يعين العباد ويزيل مشاكلهم بقدرته المكتسبة من الـ وإذنه.

وهذا النوع من الاستعانة - في الحقيقة - لا ينفكّ عن الاستعانة بالـ ذاته، لأنّه ينطوي على الاعتراف بأنّه هو الذي منح تلك العوامل، ذلك الأثر، وأذن لها، وإن شاء سلبها وجردها منه.

فإذا استعان الزارع بعوامل طبيعية كالشمس والماء وحرث الأرض، فقد استعان باﷻ - في الحقيقة - لأنّه تعالى هو الذي منح هذه العوامل: القدرة على إنماء ما أودع في بطن الأرض من بذر ومن ثمّ - إنباته والوصول به إلى حدّ الكمال.

2- أن يستعين بإنسان حيّ أو ميت أو عامل طبيعي مع الاعتقاد بأنّه مستقلّ في وجوده، أو في فعله عن اﷻ، فلا شكّ أنّ ذلك الاعتقاد شرك والاستعانة به عبادة.

فإذا استعان زارع بالعوامل المذكورة وهو يعتقد بأنّها مستقلّة في تأثيرها أو أنّها مستقلّة في وجودها ومادّتها كما في فعلها وقدرتها، فالاعتقاد شرك والطلب عبادة للمستعان به.

ولإيقاف القارئ على هذه الحقيقة نلفت نظره إلى آيات تحصر جملة من الأفعال الكونية في اﷻ تارة، مع أنّها تنسب نفس الأفعال في آيات أخرى إلى غير اﷻ أيضاً، وما هذا إلاّ لعدم التنافي بين النسبتين لاختلاف نوعيّتهما، فهي محصورة في اﷻ سبحانه مع قيد الاستقلال، وتنسب إلى غير اﷻ مع قيد التبعية والعرضية. الآيات التي تنسب الظواهر الكونية إلى اﷻ وإلى غيره:

1- يقول سبحانه: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (الشعراء/ 80). بينما يقول سبحانه في العسل: (شَفَاءٌ لِّلنَّاسِ) (النحل/ 69).

2- يقول سبحانه: (إِنَّ اللَّاهَةَ هُوَ الرَّزَّاقُ) (الذاريات/ 58)، بينما يقول تعالى: (وَإِرْزُقُوهُمْ فِيهَا) (النساء/ 5).

3- يقول سبحانه: (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزَّرْنَا الْمَاءَ) (الواقعة/ 64)، بينما يقول سبحانه: (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَكْفِفَهُمْ بِهِمْ أَرْزَاقَهُمْ) (الفتح/ 29).

4- يقول تعالى: (وَاللَّاهُ يَكْتُبُ مَا يُدِيرُ تُونَ) (النساء/ 81)، بينما يقول سبحانه: (بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) (الزخرف/ 80).

5- يقول تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ) (يونس/ 3)، بينما يقول سبحانه: (فَالْمُدَبِّرَاتِ أُمْرًا) (النازعات/ 5).

6- يقول سبحانه: (اللَّاهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) (الزمر/ 42). بينما يقول تعالى: (الَّذِينَ تَتَوَفَّوهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ) (النحل/ 32).

إلى غير ذلك من الآيات التي تنسب الظواهر الكونية تارة إلى اﷻ تعالى، وأخرى إلى غيره.

مفردات الاستعانة باﷻ:

الصبر والصلاة: قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة/ 45). فإنّ الاستعانة باﷻ ليس لها مصداق إلاّ الصبر والاشتغال بمناجاة اﷻ وعبادته ثانياً.

وقال تعالى: (قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّاهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّاهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) * قَالَُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (الأعراف/ 128-129).

هذه الآية تشير إلى مبادئ وشروط ثلاثة: أحدها في العقيدة وهو (الاستعانة بالله)، والثاني: في الأخلاق وهو (الصبر والثبات) والآخر: في العمل، وهو (التقوى)، وهي ليست شرائط انتصار قوم بني إسرائيل وحدهم على العدو، بل كل شعب أراد الغلبة على أعدائه لابد له من تحقيق هذه البرامج الثلاثة، فالأشخاص غير المؤمنين والجناء وضعفاء الإرادة، والشعوب الفاسقة الغارقة في الفساد، إذا ما انتصرت فإن انتصارها يكون لا محالة مؤقتاً غير باق.

كما أن فرعون لا يملك الأرض حتى يمنحها من يشاء، ويمنع من التمتع بها من يشاء، بل هي يورثها من يشاء، وقد جرت السنة الإلهية أن يخص بحسن العاقبة من يتقيه من عباده، فإن استعنتم بالله وصبرتم في ذات الله على ما يهددكم من الشدائد - وهو التقوى - وأورثكم الأرض التي ترونها في أيدي آل فرعون.

مكارم الأخلاق: فعن علي (ع) في بيان ما يجب على الأمة أن تستعين بالله به نصرة لإمامها: "أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد".

الدعاء: قال تعالى: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر/ 60).

القرآن: فإن آيات الله وكلماته خير ما يستعين به المرء في حياته وقد تضافرت الروايات التي حثتنا على الاستعانة بكتاب الله.

التوسل بالأنبياء والأئمة (عليهم السلام): وذلك لرفعة مقامهم عند الله تعالى، وأنه أوجب علينا التوسل بهم لاستئصال إغاة السماء، فهم باب الله الذي منه يؤتى، والتوسل بهم ليس كما يتوهم البعض من اعتبارهم سلطة مستقلة وتأثير مستغن عن الله، بل بما أعطاهم الله من السلطة ومن عليهم من التأثير.

الصمت: قال تعالى عن لسان مريم (ع): (إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَن أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) (مريم/ 26). فقد أعان الله مريم لينجسها من القوم الذين أرادوا بها سوءاً وذلك من خلال الصمت وعدم الدخول معهم في الجدل والقييل والقال.

بركات الاستعانة بالله:

عن علي (ع): "وأكثر الاستعانة بالله يكفك ما أهملك ويُعذك على ما نزل بك إن شاء الله".

ولأن من استعان بغيره، فقد استسمن ذا ورم، ونفخ في غير صم، أفلا يستعان به وهو الغني الكبير؟! أم كيف يطلب من غيره والكل فقير؟! وإنني لأرى أن طلب المحتاج من المحتاج سفه من رآيه وضلة من عقله، فكم قد رأينا من أناس طلبوا العزة من غيره فذلوا، وراموا الثروة من سواه فافتقروا، وحاولوا الارتفاع فأتضعوا، فلا يستعان إلا بالله تعالى وتقدس، ولا عون إلا منه تبارك وتعالى.

ولقد كان رسول الله (ص) يدعو إلى: "آمنن علينا بالنشاط، وأعدنا من الفشل والكسل والعجز والعلل والضرر والضرر والملل".

وعنه (ص): "اللهم إنني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل".

وأوضح من هذا ما ورد من آيات في (التوكل) باعتباره يمثل شعبة من شعب الاستعانة بالله عز وجل، قال تعالى: (... وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (هود/ 88).

(وَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ

رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (التوبة / 129).

(.. وَإِنَّ يَخْذُلَكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَا يُتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ) (آل عمران / 160).

(.. وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَا يُتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ) (المجادلة / 10).

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدُوهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ...) (هود / 123). ▶